العشق الإلهي في الأدب الصوفي:

سنحاول تقديم أهم موضوعات وقضايا الأدب الصوفي، وسنبدأ بالعشق الألهي.

ما إن ظهر التصوف مكتملاً متخذاً معناه الاصطلاحي حتى وافانا شعر المتصوفين في الحُب والعشق الإلهي متساميا عن المادية البشرية، وترفعوا في حبهم عن المرأة، واتجهوا بكل مشاعرهم وعواطفهم وجهة علوية قدسية حيث شغلوا بحب ربهم وامتلأ شعرهم وجداً وهُياماً به"

وقد تغنّى الشعراء الصوفيون جميعاً بالحب والعشق، حتى أصبح عندهم مذهباً وديناً بعد أن كان شكلاً وجسداً، وسماوّياً مقدّساً بعد أن كان أرضياً وتبذلاً، وأزلياً يدوم بعد أن كان متغيراً لا يدوم.فمن جوهر الحب: الإخلاص والصدق والحقيقة، ومن وحيه الاعتصام بالمثل العُليا والخلاق الساميّة. وقد أصبح الحُب السبيل الوحيد لرّقي الروح البشريّة، فهو للنبي والرسول، والمعلّم والمهذب، وهو الدين الوحيد الذي تقرّب الإنسان من خالقه مباشرة، دون وسيط؛ ليشاركه في المعرفة الكبرى، حتى إذا اتحد به علم حقيقة الوجود وجوهر الكائنات،فأمدها روحاً من روحه، ومحبة من قلبه.

يعرف الإمام الغزالي العشق الإلهي قائلًا: (فاعلم أن مَن عَرَف الله أحبَّه لا محالة، ومَن تأكدت معرفته تأكدت محبته بقدر تأكد معرفته، والمحبة إذا تأكدت سُميت عشقًا، فلا معنى للعشق إلا محبة مؤكدة مفرطة، ولذلك قالت العرب: "إن محمدًا قد عَشِق ربه" لمَّا رأوه يتخلى للعبادة في جبل حراء ".

والعشق حالة من أحوال الحب الإلهي، تنتقل زيادة أو نقصانًا في مراتب (مقامات) متدرجة، وهي مراتب شبيهة بأحوال العشق البشري مع الفارق في القداسة بطبيعة الحال، هذه المراتب يمكن أن تنحصر في الأحوال الآتية

- العلاقة: الحب اللازم للقلب وسميت علاقة لتعلق القلب بالمحبوب.
- الشغف: حرقة الحب للقلب مع لذة تداخلها شغفه حبه: أي إحرق قلبه مع لذة يجدها.
- اللوعة: حرقة الهوى.
- الصبابة: رقة الشوق وحرارته.
- الشوق: السفر إلى المحبوب والاشتياق: نزع النفس بكليتها إلى المحبوب.
- التبل: وهو أن يسقمه الهوى ومنه رجل متبول.
- الوصب: ألم الحب ومرضه.
- الهيام: وهو أن يذهب على وجهه لغلبة الهوى عليه.
- الوله: وهو ذهاب العقل من الهوى.

- التتيم: وهو أن يستعبده الحب.

ولقد نشأ مصطلح الحب الإلهي في القرن الثاني الهجري وكانت الحياة قبل ذلك يحركها عامل الخوف من الله ومن عقابه، أبرز ممثلي هذا الاتجاه الحسن البصري وكانت حياة الزهاد والعباد الأوائل تمتلئ بهذا المعنى، فقد عرف عنه أنه كان يبكي من خوف الله حتى قيل كأن النار لم تخلق إلا له. ويميل مؤرخو التصوف الإسلامي إلى القول بأن رابعة العدوية (ت: 185هجرية) هي أول من أخرجت التصوف من الخضوع لعامل الحب، وأنها أول من استخدمت لفظ الحب استخدامًا صريحًا في مناجاتها وأقوالها المنثورة والمنظومة، وعلى يديها ظهرت نظرية العبادة من أجل محبة الله لا من أجل الخوف من النار أو الطمع في الجنة. فهي أول من أدخل مفهوم العشق الإلهي في التصوف الإسلامي بسمات خاصة. ومن شعرها:

إنّي جَعلتُكَ فِي الفؤادِ مُحدِّثي — وَأَبحـــتُ جســـمي مـــن أَرادَ جُلوســـي
فَالجسمُ مني للجليسِ مؤانس — وَحبيـــبُ قلبـي فـي الفـــؤادِ أَنيســـي [1]

هذا العشق والحب الإلهي أصبح شائعاً جدّاً فيما بعد في أقوال الزّهاد والعباد وأخذ طريقه إلى قلوب المسلمين الذين كانوا يتلذذون به، ومن الصوفية الذين قالوا في الحب الإلهي بعد " رابعة العدوية " : " معروف الكرخي " و" ذو النون المصري " و" أبو يزيد البسطامي " الذي دعا لفكرة الفناء في الذات الإلهية. والاتحاد بين المحب والمحبوب... والجنيد " الذي يرى في حب الله أُنس الفؤاد. ومن الذين خلّفوا آثاراً كثيرة في المحبة هو الحلاج وقد ترك لنا آثاراً منظومةً ومنثورة وكلها واضحة وصريحة في دلالته على أن الرجل قصد بها إلى حب الله

ولعل عمر بن الفارض أكثر الصوفيين شعراً، هو الذي غَنَّى للعشق والحُب، وهو الذي جمع المحبين تحت لوائه، وجنَّدهم تحت قيادته. وله في الحلم علم، هو إمامه، فالحُب يفقّه الإنسان، ويرفعه. والحب ينقذه من ظلمات الجهل، والحب هو الحياة، والحياة هي أن ترى الله، وتحدد به، لذلك كان الحب ملّته. فإن مال عنه يمل عن حياته كلها. فالحُب هو دينه وعقيدته وجوهره، وهو سبيله إلى المعرفة الكبرى، والوصول إلى الله ثم الاتحاد به حتى يصبح هو إياه. ذلك انشد ابن الفارض، مُخاطباً الله:

كُلُ مَنْ حَمَالَ يَهْواكَ لـــكن — أنـا وَحـدي بِكُـل مـن في حِمَاكَـا
يُحشَرُ العَاشقون تَحتَ لوائي — وجميـــعُ المـــلاح تحـــت لِواكَـــا [2]

فقد وقف ابن الفارض " شعره وحبس قريحته على التغني بحبه لربه وعشقه إياه " ، حتى لُقِّب بسلطان العاشقين. **يقول:**

نَسختُ بِحُبي آيةِ العشقِ من قبلي — **فأهلُ الهَوى جُندي وَحُكمي على الكُلِّ**

وَكُلُ فتىً يَهــوى فَإني إمــــَامه — **وَإنــي بــرئٌ مــن فتـى سَامــع العِــذْلِ**

وَلِي في الهوى عِلمٌ تجلٌ صِــــفاته — **وَمَـنْ لَـمْ يفقّهـه الهَـوى فهـو في جَاهـلِ**[3]

وإذا ما استعرضنا دواوين كبار شعراء التصوف؛ كالحسين بن منصور الحلاّج، وابن عربي، وابن الفارض، والمقدسي، وأمثالهم من العرب. وكسعد الدين الشيرازي، وسنائي، وفريد الدين العطار، وجلال الدين الرومي، وغيرهم من غير العرب. نجد أن الكثرة الكاثرة من أشعارهم تدور في فلك الحب ولوازمه ؛ من شرح الأشواق، وشكوى البعد والهجر، ولوعة الحنين، إلى متعة النجوى، وجلال المشاهدة، ولذّة القرب والوصال.

خاتمة:

ليس غلوّاً أن نقول: إن الأغراض الشعرية الأخرى التي نجدها لدى شعراء المتصوفة عموماً، كانت تَؤوُل إلى ذلك الحبّ الإلهيّ، بسببٍ مباشرٍ أو غيرِ مباشرٍ، جَليّ أو خفيٍّ، وأن تلك الأغراض المختلفة ما كان لها أن توجَد في أشعارهم أو تُذكَر لولا بَواعثُ ذلك الحبّ ودَواعيه. فما الفناء والبقاء، والتجلّي والمشاهدة، والقَبْضُ والبَسْطُ، والفَرْقُ والجَمْع، وما شابه ذلك إلاّ مصطلحاتٍ تعبّر عن أحوالٍ تنتاب القومَ في سلوكهم وتَرقيّهم في ميادين الحبّ والقرب والمعرفة الإلهية.

الإحالات: (المصادر والمراجع)

[1] **محمد عبد المنعم خفاجي، المرجع السابق، ص: 201**

[2] **عمر بن الفارض، ديوانه، تحقيق إبراهيم الشامرائي، دار الفكر عمان، 1985م. ص 93.**

[3] **عمر بن الفارض، ديوانه، ص 101.**